مرڤت زكريا
باحث فى الدراسات الإيرانية
طالبة دكتوراه بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية- جامعة القاهرة

مفهوم « القـــوة »
فى النظرية الواقعية الجديدة

مقدمـة :

تُعَـد الواقعيـة الجديدة التى ظهـرت أولى بوادرها فى سبعينيـات القرن العشرين، هى أحـد الفروع الرئيسية للنظريـة الواقعيـة فى حقل العلاقات الدولية، وجـاءت كرد فعل على الانتقادات التى تـم توجيهها إلى الواقعية الكلاسيكية(١)؛ حيث تتمحور الفرضيات الرئيسية للواقعية الجديدة على تفسير الظواهر فى إطار حقل العلاقات الدولية من خلال الاعتماد على هيكل النظام الدولى (سواء كان أحاديًا أو ثنائيًا أو متعدد الأقطاب) بالتوازى مع قيـام النظـام الدولى على مبدأ الفوضى الناشئة عن عدم وجود حكومـة عالمية يمكنها تنظيم العلاقات فيما بين الـدول، ومـن أهم رواد هذه النظرية هم كينيث والتز (١٩٢٤- ٢٠١٣ - *Kenneth Neal Waltz*)، وستيفن والت (١٩٥٥ - *Stephen M. Walt*)، وجون ميرشايمر (١٩٤٧ - *John J. Mearsheimer*)(٢).

من ناحية أخرى، تقوم الواقعية الكلاسيكية- التى جاءت كرد فعل على الاتجاه المثالى الذى ساد خلال فترة ما بين الحربين العالميتين- على مبدأ الطبيعة البشرية الشريرة والأنانية التى تهدف إلى السيطرة علـى السـاحة الدولية التى تعمها الفوضـى من خلال اكتسـاب القوة. وفى هذا السـياق، يقوم مفهوم القوة فى الواقعية الجديدة على إضافة بعض الأبعاد غير التقليدية للقوة مثـل أدوات القوة الناعمة، بالتوازى مـع نظيرتها التقليدية المتمثلة فى القوة العسـكرية، انطلاقًا من عدم القـدرة على نقل القوة أو تحويلها، والتطورات التى طرأت على عصـر مـا بعد الحـروب العالمية والحـرب الباردة مـن بروز محوريـة البُعد الاقتصادى والظهير الذى حظى به الاعتماد المتبادَل الذى بات عابرًا للقوميات، فضلًا عن الحد من الإكراه فى استخدام القوة(٣).

وهنـا، يمكـن القـول إنـه يوجـد اتجاهـان أساسيان فـى إطار النظريـة الواقعيـة الجديـدة فيمـا يتعلق بمفهوم القـوة، وهو ما يمكن عرضه على النحو التالى:

١- القوة فى الواقعية الجديدة الدفاعية

يُعَـدُّ عالِم السياسـة الأمريكـى **كينيث والتز** مـن أهم مفكرى الواقعيـة الجَديدة الدفاعية الذين تناولوا مفهـوم القوة بالتحليل، وأشـار إلى أنه توجد علاقة ارتباطية بين قوة الدولة وخصائصـها الأخـرى مثل المـوارد الطبيعية، والمسـاحة، والموقـع الجغرافى، والتطور الاقتصادى، والاستقرار السياسى. وفى السياق ذاته، أكد **والتز** أن قوة الدولة ليسـت مُطلقة، ولكن نسـبية يتم قياسها طبقًا لمكانتهـا داخل هيـكل النظام الدولى، ومقدار هذه القوة بالنسـبة إلى ما تتمتع به نظيرتها من القوى الأخرى(٤).

ويرتبـط مفهـوم القوة لـدى **والتـز** بمفهوم الفوضـى داخل هيكل النظام الدولى؛ حيث تتطلب هذه الفوضـى مـن كل دولة الاعتماد على ذاتهـا ليكـون لديها القـدر الكافى من القـوة التى تمكنهـا من تحقيق مصالحها فى ظل التراتبية التى يتسم بها النظام الدولى، ويؤكد **والتز** أن تغير هيكل النظام الدولى يتوقف على مقدار القوة الموجود لدى كل مـن القوى الكبـرى الموجودة بداخله. كما يصـاحب مفهوم القوة لدى **والتـز**، مـا يُعرف بـ «**معضلـة اللاأمن**»؛ حيث يفترض **والتز** من خلال تلك المعضـلة أن الدول فى حالة استعداد تام لخوض الحرب من أجل الدفـاع عـن ذاتها، وبالتالى، تسـعى الـدول للحفاظ علـى بقائها عبر حيازة القوة، وضمان قدر من الأمن فى مواجهة الدول الأخرى(٥).

وكذلـك، ربط أحد منظرى الواقعيـة الجديدة الدفاعية وهو عالم السياسة الأمريكى **ستيفن والت** بين مفهوم القوة والتهديد؛ حيث كشَف **والـت** عن أن قـوة الدولة تتحدد وفقًا لعدة مؤشـرات يتمثل أبرزها فى القوة الشاملة للدولة بالمقارنة مع جيرانها، ومدى قربها الجغرافى من مصـادر الخطر أو التهديد، والقدرات الشاملة وعلى رأسها العسكرية الهجومية لجيرانهـا. وأقَـرَّ **والـت** بأن الـدول فى ظل هـذه الظروف تلجـأ إلى كل الاسـتراتيجيات الممكنة لحماية نفسـها مـن التهديدات الخارجيـة؛ سـواء بالتحالف مع أطـراف أخرى، أو اللجـوء إلى تقوية ذاتها داخليًا تحسبًا لأى مواجهة مع طرف أو أطراف خارجية(٦).

وبالتالـى، يمكن تعريـف القوة فى الواقعيـة الجديدة الدفاعية على أنهـا مقدار القدرات النسبية التى تحوزهـا الدولة والتى تمكنها مـن الدفـاع عـن ذاتهـا وتحقيـق مصالحهـا مقارنة مـع قـدرات القوى الأخرى الموجودة داخل هيكل النظام الدولى.

٢- مفهوم القوة فى الواقعية الجديدة الهجومية

انطلاقًا من الانتقادات التى تم توجيهها إلى الواقعية الجديدة الدفاعية عقب انهيار الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٩١ من قبيل الطبيعة اللاتاريخية للنظرية التى أهمَلَت على أثرها دور العوامل الداخلية المهمة فى تفسير سلوك الدولة الخارجى ودور بعض المحددات البارزة الأخرى مثل الأبعاد الثقافية والأخلاقية والدينية، ظهرت الواقعية الجديدة الهجومية(٧).

وفيما يتعلق بمفهوم القوة فى الواقعية الجديدة الهجومية، فأكد **جون ميرشايمر** أنه فى ظل حالة الفوضى السائدة داخل النظام الدولى ينبغى أن تسعى كل دولة إلى تحقيق أقصى قدر من القوة الخاصة بها، الأمر الذى من شأنه أن يُمكنها من تحقيق القدر الأكبر من الهيمنة على الدول الأخرى. ويبرر **ميرشايمر** سَعْى الدول للقدر الأكبر من الهيمنة، انطلاقًا من أنها لا تأمن نيات غيرها من الدول، وغير مُتأكدة من أن الدول الأخرى لن تستخدم القوة ضدها، الأمر الذى يرجع إلى تقلب العلاقات بين الدول وتغيرها، فضلًا عن عدم وجود معلومات كاملة.

وفى هذا السياق، يكشف ميرشايمر عن أن سعى الدول لحيازة القدر الأكبر من القوة، يأتى من رغبتها فى الحفاظ على البقاء كشرط أساسى لتحقيق مصالحها، ولكنه نَوَّه إلى أنه رغم أن غالبية الدول ستسعى فى هذه الحالة لتعظيم قوتها العسكرية التى تُمَكِّنها من تدمير بعضها البعض، فإنها ستُدرك فى النهاية أن الوسيلة الأكثر فاعلية لضمان البقاء فى حالة الفوضى هى تعظيم قوتها النسبية مع الحفاظ على الهدف النهائى فى أن تكون القوة المهيمنة فى النظام الدولى(٨).

وبالتالى، يمكن تعريف القوة فى الواقعية الجديدة الهجومية على أنها حيازة القدر الأكبر من القدرات المطلقة فى ظل الفوضى التى يتسم بها النظام الدولى للهيمنة على القوى الأخرى.

٣- رؤية الباحثة لكيفية توظيف مفهوم القوة

انطلاقًا من تعدُّد المفاهيم فى إطار النظريات المختلفة داخل حقل العلاقات الدولية، ترى الباحثة أن اختيار مفهوم القوة فى الواقعية الجديدة الدفاعية أو الهجومية كمفهوم للتحليل يعتمد على الحالة محل الدراسة ورؤية الباحث لمدى ملاءمة أى من النظريتين لموضوع بحثه.

كما يمكن للقوى الصغرى التى لا تمتلك الحد الأدنى من القدرات للدفاع عن ذاتها أن تلجأ للتحالف مع القوى الإقليمية والعظمى بغرض تعزيز هامش المناورة الخاص بها سواء للدفاع أو الهجوم، وهو الأمر الذى يُصبح بمنزلة أولوية قصوى لها فى هذا الإطار. واستنادًا للقدرات الكافية التى تَحُوزها القوى العظمى فيما يتعلق بالدفاع، فإنها قد تلجأ للتحالفات بغرض زيادة قدراتها الهجومية وتعزيز هيمنتها فى النسق الدولى.

ولكن من ناحية أخرى، يجب على الدول الصغرى أن تكون حَذرة للغاية من دخولها فى تحالفات، لجهة سَعْى القوى العظمى للهيمنة الكاملة عليها، مما يؤدى لفقدان الدول الصغرى قدرتها على صنع القرار وعدم تحقيق مصلحتها والغاية من دخولها فى التحالف من الأساس، بما يؤدى فى النهاية لجعلها مجرد دولة تابعة. وبالتالى، ينبغى على هذه الدول أن تخطط بصورة صحيحة للمسار الملائم بالنسبة لها لبناء القوة سواء الدفاعية أوالهجومية.

٤- أبرز الانتقادات الموجَّهة لمفهوم القوة فى إطار الواقعية الجديدة

رغم الاستحقاق الكبير الذى مازالت تحظى به الواقعية الجديدة بين نظريات العلاقات الدولية، انطلاقًا من قدرتها على الاستمرار فى تفسير الظواهر السياسية ولاسيما تلك المرتبطة بالتفاعلات داخل النسق الدولى وبين القوى الكبرى، فإنه تم توجيه انتقادات كثيرة لها من قبل بعض النظريات الأخرى مثل الليبرالية بسبب اعتمادها على متغيرات بعينها مثل القوة والصراع وإغفال بعض المفاهيم المهمة الأخرى مثل التعاون والتكامل الإقليمى والدور المتصاعد للفاعلين العابرين للقومية مثل الشركات المتعددة الجنسية. وكذلك وَجَّهت لها نظريات أخرى مثل البنائية انتقادات أخرى من قبيل اعتمادها المفرط على التاريخ وتجاهلها العديد من المتغيرات الأخرى ذات الأهمية مثل الهوية الجماعية والثقافة المشتركة ودورها فى تفسير التفاعلات فى العلاقات الدولية(٩).

الهوامش :

(١) وُجِّهَت الكثير من الانتقادات للواقعية الكلاسيكية من قبيل اعتمادها المفرط على التاريخ فى تحليل الظواهر فى العلوم السياسية، وكذلك التركيز على مفهوم القوة واعتباره بمنزلة المتغير الأساسى لتفسير أى ظاهرة، بالتوازى مع الاتفاق على تعريف واحد لمفهوم القوة وهل هى وسيلة أم غاية، فضلًا عن انتقاد السلوكيين لها لاعتمادها المفرط على الأساليب الكيفية دون أى تطرُّق للمناهج الكمية، وإقصاء الفاعلين الآخرين من غير الدول مثل المنظمات الدولية والفاعلين العابرين للقومية.

(2) Hussein Solomon, Realism and its Critics, in: P. Vale et al. (eds.), Theory, Change and Southern Africa's Future, (London, Palgrave Macmillan, 2001), pp 34-55.

(3) Brian C. Schmidt, Competing Realist Conceptions of Power, Journal of International Studies, Vol.33, No.3, 2005, p528, pp 536-537.

(4) Kenneth N. Waltz, Theory of International Politics,1st edition (United States of America, Wesley Publishing Company, 1979), pp 97-101.

(5) Kenneth N. Waltz, Ibid, pp 103-129.

(6) Stephen M. Walt, The Origins of Alliances,1st edition,)New York, Cornell University Press, 1987), pp 1-10, pp 17-20.

(7) Gustav Meibauer, Neorealism, Neoclassical Realism and the problem(s) of history, Journal of International Relations, Vol 55, No 5, 2021, pp 1-10.

(8) John Mearsheimer, The Tragedy of Great Power Politics, 1st edition, (New York, Nanon Company, 2001), pp 29-48.

(9) Hussein Solomon, OP.Cit, p55.